

ماضى القرويين وحاضرها

للأستاذ عبد الله كنون الحسنى

— ١ —



(جامع القرويين)

الثقافة الاسلامية وفنون المارق الأخرى ، كما سيحدث أبناء الأزهر في ذلك العيد القريب عن أزهرهم ويقومون باحياء ذكراه الخالدة المحفوظة في ضمير الزمان ما بقى من رايى الجليل من بنى الانسان . وذلك لأن كثيراً من الناس يتشوقون إلى معرفة أحوال هذه المهاد والأطوار التي اجتازتها منذ تأسيسها إلى الآن ، وسيلون عطشهم بالنسبة إلى الأزهر ؛ أما بالنسبة إليها فسيقون أعطن مما كانوا ، لأن الذكرى تبعث الذكرى . فلا أقل من أن يحظوا بيلالة من العلم في كلمة أو كلمتين عن تلك الجامعات التي غبرت هي والأزهر مدى أجيال تشع على العالم أنوار العلم والمعرفة وتدرج بالفكر الانساني في مدارج النمو والارتقاء .

وقد استحسننا اقتراح الأستاذ ولبتنا مدة ننظر من يستجيب له ويتمنا بالحديث عن أى جامع كان من تلك الجوامع فاظفرنا

كتب الأستاذ على الطنطاوى في العدد (٢٣٦) من «الرسالة» بمناسبة إظلال العيد الأثني للجامع الأزهر يقترح على أبناء جامع القرويين والزيتونة والنجف أن يتحدثوا لقراء «الرسالة» عن شيء من تاريخ هذه المهاد وما ساهمت به في خدمة

والمغامرات الفردية دون الاهتمام بريح المعركة

٢ — تقدير المرأة واحترامها لأنوثتها وأخاذها وسيلة للتسلية

والتمجيد وإن كان لا ينظر إليها كساوية للرجل

٣ — وجود دافع داخلي في البدوى يدفعه إلى القيام بأعمال

البطولة والكرم حتى تكون أعماله هذه أقرب إلى الخيال منها

إلى الحقيقة في أكثر الأحيان

٤ — الكرم وحسن الضيافة الحائمان ويرجع سببهما

أولاً إلى عدم الاطمئنان إلى بقاء الملكات بصورة مستمرة ،

وثانياً إلى حب التفوق والمجد اللذين يسمي البدوى إلى تحقيقهما

في الحرب أيضاً

ولكى أشرح هذه الصفات الأربع سأستشهد ببعض

قصص تصف لنا القروسية العربية . والقصص التي من هذا النوع

أكثر من أن تحصى . وقد أشاد بذكرها الشعراء واستلأت

بأخبارها كتب الأدب وتفنن بها المشاق والمطربون . ولقد كان

هذا شأن التروبادور Troubadour في القرون الوسطى في أوروبا ،

واسمهم هذا مشتق من فعل طرب العربي . وقد كانوا يتجولون

في البلاد مثيرين الحماسة برواية قصص الأبطال والأحداث الغرامية

وسأقتصر على بعض القصص والحكايات كما أتى سأذكر

تجاربي الخاصة

« يتبع »

مبيل تبعين

ظهر مديناً

هكذا أغنى

روايه الشعر الجدير

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

ص

١٠

تمن النسخة الواحدة

يطلب من صاحبه ومن جميع المكاتب الشهيرة بالقاهرة

بنحو قرن ونصف . إذ أن مقابل تاريخ بنائه من الميلادى يكون حوالى (٩٧٠) وحينئذ فترتيب هذه الجامعات في القدم يكون هكذا : القرويين فالأزهر بجامعة بولونيا

ومن المعلوم أن القرويين لأول بنائها لم تكن على ما هي عليه اليوم من السعة والفضامة ، فقد زيد فيها كثير ، وجدد بناؤها مراراً ، وأولى الزيادات كانت في أيام دولة زمانة سنة (٣٠٧) ، ثم في أيام عبد الرحمن الناصر الأموى خليفة الأندلس الذى دانت له البلاد ردها من الزمن . وقع تجديد لبناء القرويين وزيادة أخرى فيه وذلك سنة (٣٤٥) ، ثم كان إصلاح جديد في أيام المنصور ابن أبى عامر حاكم الأندلس وحاجب الخليفة هشام بن الحكم سنة (٣٨٨) . ثم في دولة لمتونة في أيام أمير المسلمين على بن يوسف ابن تاشفين قرض المسجد كله وزيدت فيه زيادة مهمة من جميع جهاته واحتفل في بنائه وزخرفته إلى الناية وكل ذلك سنة (٥٣٨) أى بعد وفاة أمير المسلمين على بن يوسف بسنة

ولما ملك الموحدون قانس سنة (٥٤٠) خانت قهها المدينة وأشياخها أن ينتقد عليهم الموحدون النقش والزخرفة التى فوق المحراب لقيامهم بالتنقش والتنقل ، وقيل لهم إن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على يدخل غداً المدينة مع أشياخ الموحدون يقصد صلاة الجمعة بالقرويين ، فأنى الحمامون الجامع تلك الليلة وغطوا على ذلك النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالورق ولبسوا عليه بالجلس ودهن بالبياض فاخفى أثر ذلك ولم يبق ظاهراً إلا البياض

ونلاحظ هنا أن قهها المدينة وأشياخها إنما خافوا انتقاد الموحدون عليهم لما كانوا هم المباشرين لبناء المسجد وزخرفته ولم يكن ذلك من عمل المرابطين الذين قام عليهم الموحدون ؛ وكذلك كان هذا المسجد منذ تأسيسه من الشعب وإليه . فمعظم هذه الزيادات — إن لم تقل كلها — كانت مما قام به أفراد من الشعب قهها وأئمة وغيرهم ، بعد استئذان الحاكم طبعاً . ولشد ما كانوا يتحرون في المال الذى ينفق على ذلك ، بل في الآجر والماء والتراب الذى كان يدخل في البناء فلا يصرفون فيه إلا ما كان من أصل طيب ؛ وربما اشتبه عليهم مال أحدم فادى الأيمان التليظة على أنه من الحلال الخالص الموروث عن آباءه الذين صار

إلا بالحمية والمثل ، وأخيراً تكلم بمض أفاضل التجف عن جامعه وهو ثالث الثلاثة الأحق ببسط الكلام فيه والتوسع في الحديث عنه ، ولكن ذلك الفاضل اقتضب القول فيه اقتضاباً ووعداً بالتبسط مرة أخرى وإنا لوعده لمنتظرون . وقد حجب إلينا لما بقى الميدان خالياً بل رأينا من الواجب أن نتقدم بكليات عن جامعنا القروى العاصر يتعرف بها الجمهور العربى من قراء « الرسالة » عظمة تاريخ ذلك المههد وما قام به من خدمات جلي للعلم والمعرفة طوق بها المدنية الثرية في فجر نهضتها بأيدى بيضاء :



جامع القرويين

فأولى لليزات التى تبث على الفخر والازدهار ، وهى مما اختص به هذا الجامع ، أن مؤسسه امرأه ، وامرأة من صميم الشعب ،

لا ملكة ولا أميرة . وفى هذا ما يكفى لرد ما يتقوله المتقولون على المرأة السلة ويصمونها به من الجهل والتأخر عن مجارة سنن الحياة ؛ إذ ما عهدنا في تاريخ أمة من الأمم وفى العصر الحاضر أن يكون مؤسسو الجامعات العلمية المالية من النساء . ولكن الاسلام الذى رفع من شأن المرأة وأعلى من قدرها إلى ما لم يتلته في أية شريعة أخرى سواء كانت سماوية أو وضعية هو الذى سما بنفس السيدة أم البنين فاطمة بنت محمد القهرى — إلى هذا المقصد التليل وبثت فيها الرغبة الملحة إلى بناء جامع القرويين بما لها الحلال الذى ورثته من أبيها وزوجها ، لم تنفق فيه سواء احتياطاً منها وتحرراً من الشبهة ؛ وذلك عام (٢٤٥) وكانت لم تزل صاعقة منذ شرعت في بنائه إلى أن تم وصلت فيه شكراً لله تعالى الذى وقهها لذلك العمل المبرور

وهذا التاريخ الذى بنى فيه جامع القرويين لا شك أنه أقدم من تاريخ بناء الأزهر الذى كان سنة (٣٥٩) . يقول الأستاذ فريد وجدى في دائرة المعارف : « إنه أقدم مدرسة في العالم بعد مدرسة بولونيا بإيطاليا فقد تقدمته بأكثر من أربعة قرون » غير صحيح ، لا بالنسبة للقرويين كما رأيت ، ولا بالنسبة إلى كلية بولونيا المذكورة لأن تأسيسها إنما كان سنة (١١١٩م) أى بعد الأزهر

ابن تاشفين حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى (٤٥٠) .



المدرسة البوعشانية

والريفيون هم سباق هذه الحلبة الذين خلقوا لنا أكبر عدد من المدارس المتقنة الصنع المحكمة الوضع ، لا حول الترويين فقط بل في جميع أنحاء المغرب ولما كان كلامنا هنا إنما يساق إلى الترويين فلنذكر بالخصوص مدرسة الطارين التي بناها السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن

عبد الحق. ومدرسة أبي عنان اللتين تعمدان قطعتين خاليتين من فن العمارة والنقش والتخريم والتزيق المغربي . وقد تلحق بهما مدرسة الشراطين التي بناها مولاي رشيد من ملوك دولتنا الملوية العلية . أما غير هذه المدارس فأنها وإن لم تكن مثلها في بداعة الشكل وجمال الصنعة إلا أنها لا تقل عنها فخامة بناء ورحابة فناء هذه العناية الفائقة بالترويين والاهتمام البالغ النهائية بأمره من الشعب ثم من الحكومة في كل عصر وفي كل دولة — تدلنا على ما كان له من مكانة سامية في النفوس منذ عهد تأسيسه وما كان يخص به من الاحتفال والاهتمام دون بقية المساجد الأخرى . وإلا فأخوه وشقيقه جامع الأندلس الذي بنته السيدة مريم أخت أم البنين وشقيقها لم يظفر بعشر مما ظفر به هو من ذلك ، بل إنه ما لبث أن غطى على جامع الأشراف الذي أسسه المولى إدريس ثاني ملوك الدولة الإدريسية ومختط قاس وبانيها سنة (١٩٢) فنقلت خطبة المدوة القروية من مسجد الأشراف المذكور إلى القرويين وأصبح هو المسجد الجامع في تلك المدوة كلها وابتدأ نجم القرويين يلعب في سماء العلم منذ أواخر القرن

إليهم من عمل شريف إلى غير ذلك مما تراه مفصلاً عند ابن أبي زرع في القرطاس والجزائري في زهرة الآس وابن القاضي في جذوة الاقتباس

هنا كان قد بلغ الجامع كماله فأتى دور المصالح والمنافع والمرافق الملحقة به من نسقيات وميضات ومستودعات وخزانات ومقاصير ومدارس وما إليها . وأهم ذلك خزانة الكتب التي أسسها به السلطان أبو عنان فارس الريني وأودعها كما يقول الجزائري : « من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الأثري ورجاء ثواب الله الأوفى ، وعين لها قبا لضبطها ومناولة ما فيها وتوسيلها لمن له رغبة . وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمه وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٥٠ »

وأسس

أبو عنان كذلك خزانة مصاحف احتفل في بنائها وتشيدها بما لم يسبق إليه ، وأعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط وكلف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط . ثم لم تزل الملوك والسوقة تقف الكتب على خزانة



(مدرسة الطارين)

الترويين بعد ذلك حتى اجتمع بها من المجلدات العلية والأدبية والدينية ما لا يدخل تحت حصر ولا يستوفيه عد ولا حساب وأما المدارس وهي بيوت الطلبة للملحقة بالترويين ، فإن من أقدم ما بنى منها مدرسة الصابرين التي أسسها أمير المسلمين

اضطروا إلى الأخذ عنه والاعتباس منه كما في بعض قوانين المحاكم
الشرعية بمصر— إلا بفضل القرويين وما أبدوه من الهمة الصادقة
في هذا السبيل (يتبع)
« طنبجة »
عبد الله كنونه الحسني

الثالث وأوائل الرابع، وما كاد القرن الرابع يبلغ النصف حتى كان
مثل عبدالله بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة والنوادر والذي
يُعرف بمالك الصغير يشد الرحلة إلى أحد رجاله وهو دراس بن
إسماعيل التوفي سنة ٣٥٧ هـ وفي هذا العهد كان أيضاً أبو جيدة

ابن أحمد وهو فقيه فاس ومحررها من سطوة
عامل المنصور بن أبي طاهر . ولا شك أنه كان
أحد أساطين هذه الكلية ومن عملوا على رفعة
شأنها وعلو قدرها

وتتوالى حلقات السلسلة حتى تصل إلى
المصر الحاضر مؤلفة من رجال وقفوا حياتهم
على خدمة التشريع الاسلامي تحت راية مالك
وأصحابه فبلغوا به الناية التي ما بعدها غاية في
الكمال ، وطارت لهم شهرة مطبقة في أرجاء
العالمين الشرق والغرب . فإمام فتوى
ومجتهد مذهب مثل الفقيه ابن عمران الفاسي
التوفي سنة ٤٣٠ والفقيه ابن محمد صالح التوفي
سنة ٦٣١ والفقيه راشد الفاسي التوفي سنة ٦٧٥
والفقيه أبي الحسن الصغير التوفي سنة ٧١٩ والفقيه
أبي عمران البغدادي التوفي سنة ٧٧٦ والفقيه
التوردي التوفي سنة ٨٧٢ والفقيه المشارك أبي
عبد الله بن غازي التوفي سنة ٩١٧ والفقيه أبي
علي بن رحال التوفي سنة ١١٤٠ والفقيه الرهوني
التوفي سنة ١٢٣٠ وغيرهم

وفي الحقيقة أن أكثر الجهود في الكلية
في كل عصر كانت موجهة إلى هذه الناحية من
التعليم، وممظم إنتاج رجالها كان في هذا العلم : علم
الفقه وما إليه على مذهب مالك رحمه الله حتى
ليصح القول إن أهل كل بلاد لم يخدموا مذهبهم
بقدر ما خدمه أهل المغرب، وإن المذهب المالكي
لم يصل إلى ما وصل إليه من الخصب والنماء
والنضوج — حتى أن أتباع غيره من المذاهب ربما

كريم بالموليف للحلاقة
يتخذني !
ويقول !



— انه افضل كريم حلاقة الوجه . لأنه يرعى بمعدل ٣٠٠
— انه لا ينشف على الوجه بل يجعل الوجه طرياً ناعماً للحلاقة
— ان فقائمه تجعل الشعر ينتصب فتمر عليه الموزي وتحلقه بسهولة
— انه هو الكريم الوحيد المركب من زيت الزيتون وزيت
النخيل . لذلك يشتر الانسان بلذة بعد انتهائه الحلاقة